## لقـاء فى القفـر

مـا كان أطول الليالى على امرئ القيـس، وهو ينتقل فى أحياء العرب طريدًا ذليلًا بعد أن سـار عن جـوار بنى طيئ، وقد اجتمع عليه شعور الذلة، وذهاب القوة وهم العيلة، وكان فى تنقله تساوره ذكريات ما نزل به من قسـوة الأقـدار ونحس الطالع؛ وكأن القضاء كان يلاحقه أينما حل. فما نزل فى حى حتى ثارت فيه الحروب، واضطربت فيه الأحوال، واضطر أن يرحل عنه مكروهًا مطرودًا.

انتهـى به السـير بعد أن خرج من أرض طيـئ، وهو لا يعرف له وجهة، إلى سـهل فسيح تتموج فيه الربى الصخرية، والكثبان الرمليـة، لا يتخللها نبات ولا يؤنس وحشـتها أنيس. فحل فيه حيث أمسـى بعد أن قضى اليوم كله فى سـير حائر يتجه فيه إلى غير وجه، وضـرب خيامه هناك، ونزل مـع صاحبيه اللذين بقيا له مـن الدهر: يزيد بـن معاوية الجون وأخته هنـد. ولم تكن له إبل كثيرة يطلب لها المرعى، فلقد أصبح لا يملك منها سـوى بضع نياق ورواحل، اشتراها بعد أن سلبت إبله ورواحله فى بلاد طيئ؛ ولهـذا لم يعبـأ أن يتلفت حوله ليرى أين حـل، بل كان وهو يقيم خيامه يسـاوره شـعور قوى من اليأس، وَدّ معه لو انشقت الأرض فابتلعتـه، وابتلعـت معـه تلك الأخـت الحبيبة التـى كان قلبه

يدمى من خوف الحـوادث عليها، أو لو نزلت عليهما من السـماء صاعقـة أذهبت عنهما معًا عبء الحياة التى أصبحت حملًا لا طاقة لهما به!

ولما فرغ هـو وابن عمه يزيد من إقامـة المنزل ذهب يدور فى الفضاء يلتمس بعض الأحطاب ليوقد بها نارًا تقيهم برد الليل الذى عودهم القسـوة فى الليالى المنصرمة، حتى إذا ما تهيأ له من ذلك مقدار كاف عاد إلى جـوار الخيمة فأوقد النار، وجلس إلى جانبه يزيـد يسـتدفئان فى صمت وحـزن، وأقبلت عليهمـا هند بعد أن فرغت من تهيئة المتاع، تحمل جفنة من خوص النخل فيها شـىء مـن التمر وعُسٌّ مـن اللبن احتلبته على عجـل، فوضعت ذلك بين أيديهما وجلسـت إلى جوارهما تختلس النظرات إلى وجه أخيها العابس، وأحسـت وخزة أليمة فـى قلبها عندما رأت ما اعتراه من التغير والاعتلال.

فمد امرؤ القيس يده إلى الجفنة فأخذ منها تمرات جعل يأكلها فى غير إقبال، كأنه لم يقض ذلك اليوم كله لم يطعم طعامًا، وشاركه ابن عمه فى زاده، وأصابت هند تمرتين معهما، وشـربت شيئًا من اللبـن، ثم أقبلت على النار وذهبت فـى أفكارها الحزينة صامتة. وفيما كانوا فى ذلك العشـاء الكئيب سمعوا حسًّا، فأسرع الرجلان قائمين إلى سلاحهما يستعدان، ثم ذهبا إلى جانب كثيب فقاما عنده يسـتمعان إلى الصوت البعيد لعلهما يهتديان إلى معرفة القادمين؛

وقامت هند تتلفت حولها فى ظلام الليل وسارت فى آثارهما حتى وقفت خلفهما تطلب الاطمئنان فى جوارهما؛ ومضت ساعة طويلة ثم ظهرت أشباح القادمين تتراقص فى الظلام، فإذا ثلاث رواحل مقبلة؛ فلما اقترب الوافدون منهم نادى أحدهم مستأذنًا، فانجلى الأمر وعرف امرؤ القيس وصاحباه أن هؤلاء قوم أتوا يطلبون منزلًا عندما لاح لهم ضوء النار، إذ حسبوا أنهم يجدون عندها حيًّا آهلًا. فأسرع امرؤ القيس نحوهم ملبيًا وأسرع يزيد وراءه لاستقبال الأضياف معه، وذهبت هند إلى النار فألقت فيها بعض الحطب وأسرعت فى حيرة إلى الخيام تلتمس لهم طعامًا؛ وفيما هى فى اضطرابها تنقب فى المزاود والقعاب سمعت فى خارج الخيام أصوات الرجال تتعالى مختلطة، فأسرعت إلى باب الخيمة، وأصاخت بسمعها فى شىء من الذعر فإذا بها تسمع حديث قوم متعارفين قد تلاقوا على غير انتظار فسرى عنها ما ساورها من الخوف، ودب فيها أنس غريب، وذهبت عائدة إلى ما كانت فيه من التماس الطعام؛ ولكنها سمعت أخاها يناديها فى خفة لم تعهد فيه مثلها منذ زمن طويل، فأقبلت مسرعة نحوه، فرأته مع أصحابه جاثين على الرمال حول بقرة وحشية، وهم يتحدثون فى مرح ومودة. فلما اقتربت منهم نظر أخوها إليها ووقعت على وجهه أشعة النار فبدا وجهه متبسمًا عليه مظهر من البشر والأنس وقال لها فى مرح: «عمرو بن قمية! إنك لم تعرفيه يا هند. هو صديق ميمون النقيبة،

وقد عثر لنا فى مقدمه على هذه الهدية» وأشار إلى البقرة المطروحة بين يديه فتبسمت هند، وقالت فى هدوء: «مرحبًا به!».

فعاد امرؤ القيس إلى الحديث فقال: «وهذان صاحبان من فزارة».

فقالت هند فى نغمتها الأولى: «أهلا وسهلا!».

وكان امرؤ القيس وهو يحدث أخته قد أخرج من منطقته خنجرًا وجعل يشحذه على صخرة بجواره، فلما أتم قوله أقبل على البقرة وشرع يسلخها وأصحابه يساعدونه حتى قطعوها قطعًا، وقامت هند تحمل المُزَع لتعدها للطبخ فى القدور ثم أقبلت على النار فأطعمتها من الحطب، وأقامت حولها ثلاث أثافىّ من الحجارة وشرعت تجهز الطعام.

وكان امرؤ القيس يقطع حديثه مع أصحابه بين حين وآخر، ليقوم إلى أخته ويساعدها فى مهنتها لهم، وهو كلما صنع شيئًا قال لها فى صيحة طرب: «هكذا كنت أصنع بصيدى أيام كنت أعيش يا هند».

وبعد حين نضج اللحم شواءً ومسلوقًا؛ وثردت هند فى المرق ثريدًا، وذهبت هى وأخوها ويزيد بن معاوية يحملون الصحاف، واجتمع القوم كلهم حولها فى عشاء مرح يتجاذبون أطراف الحديث.

قال أحد الفزاريين يرد على قول عمرو بن قمية: «هذه رمية أعرفها. إنها رمية السموءل إنه لا يصيب صيده إلا فى نحره».

فأجاب عمرو بن قمية يخاطب امرأ القيس: «إنها تشبه رميتك يا أبا وهب».

فقال امرؤ القيس: «لقد طال عهدى بالصيد يا عمرو. من لى بيوم من أيامه!».

فقال الفزارى الآخر: «لا أظن إلا أن السموءل وأصحابه قريبون من هنا. ولعلنا فى الغد نقع على آثارهم قريبة منا».

«فقال امرؤ القيس متحمسًا يخاطب الفزارى: «ليت هذا يكون. أهو رجل ممن تحمد صحبته يا ربيع؟».

فقال الربيع الفزارى: «هو ملك شاعر يا أبا وهب وهو أشبه الناس بك يا بن حجر».

فاهتز امرؤ القيس سرورًا عند سماعه ذلك القول، وقال: «إنها لأيام صيد يا ربيع. لقد اهتزت نفسى إلى يوم منها».

فبادر الربيع قائلًا: «إننى أعرف رمية السموءل. وما هذه البقرة التى وجدناها فى مسيرنا إلى هنا إلا من صيده؛ فإذا سرت معنا غدًا فإنك لا بد ملاقيه فى بعض الطريق».

فبدت حماسة ظاهرة على وجه امرئ القيس، ولكنها اختفت سريعًا وحل محلها تردد وفتور، ثم قال فى نغمة حزينة: «ما أظنه إلا كسائر من حللت بينهم. لن أقصد أحدًا من الناس بعد ما بلوت منهم، لن أعيش إلا فى هذا البر كأحد السباع».

فقال الفزارى: «ليس السموءل شبيهًا بأحد. هو أوحد العرب كرمًا وشجاعة ونبلًا، لن تجد مثله بين العرب يا أبا وهب».

وكان القوم قد فرغوا من طعامهم عند ذلك، فقاموا واحدًا بعد واحد يتفسحون فى السهل، وبقى امرؤ القيس وحده مع صاحبه عمرو بن قمية، فقال له يخاطبه: «أرأيت كيف آل بى الأمر إلى هذه الوحدة يا عمرو؟».

فأجاب عمرو متأثرًا: «لا عليك يا أبا الحارث، فلست أول من أخنى عليه صرف الدهر. هلم معنا إلى السموءل يا أبا الحارث، فليس لك خير من المقام عنده حتى ترى ذات عيبك».

فرفع امرؤ القيس رأسه فى سرعة وقال: «أذاهب أنت إليه»؟

فمال إليه عمرو وقال: «سأذهب إليه ليوصلنى إلى الحارث بن أبى شَمِر الغسانى فله عنده مودة».

فقال امرؤ القيس فى شبه صيحة: «الحارث بن أبى شَمِر؟»

فقال عمرو مخفضًا صوته: «نعم فإنى أطمع أن يوصلنى إلى قيصر».

فصمت امرؤ القيس ونظر إليه فى دهشة، واستمر عمرو يقول كأنه يناجى نفسه بأمل أثير عنده: «نعم إلى قيصر. هذا ما بقى لى من الأمل. لا بد أن أرى أمى عنده».

فصاح امرؤ القيس: «ماذا تقول يا عمرو؟ ما عرفتك إلا ابن رجل من فزارة».

فقـال عمرو: «نعم أنا ابن قميّة ولكن أبى أخبرنى عند موته عن حقيقة أمى. لقد تركتك كما تعلم بعد حرب بنى كنانة عندما دعانى أبـى إليه فى مرضه. مسـكين أبى! إننى لم أعرفـه إلا عند موته. لم أعرفه إلا عند موته».

ورفع عند ذلك يده فمسـح دمعة نزلت على وجهه ثم اسـتأنف قائلًا: «لما حضره الموت أفضى إلىَّ بسر كنت أجهله».

فنظر إليه امرؤ القيس فى دهشـة بالغة وبقى صامتًا، فاسـتمر عمـرو يقول: «أخبرنى عن حقيقة مولـدى، أخبرنى أن أمى امرأة روميـة، عرفهـا أبى فى الشـام، كانـت راقصة جميلـة، عرفها وأحبها، فولدتنى ثم تركتنى له، وهى اليوم عند قيصر».

فصـاح امرؤ القيس كأنه يسـمع حديث خرافـة: «عند قيصر؟» فقال عمرو: «إنك لا تصدق، وأنا كذلك ما كنت لأصدق».

وسكت لحظة ثم قال بصوت منخفض كأنه يحدث نفسه: «إننى كنت أحد أصحابك إذ تضرب فى الأرض فى طلب اللهو، لا نسـتقر ولا نعبـأ بأمر فى الحياة، ومـا كنت فى اضطرابى معك فى الأرض إلا وارثًا طبع أمى، هذا ما عرفه أبى ، وهذا ما دعاه إلى التوزع بين كراهتى والرقة علىّ».

ثـم أطرق حينًا، وقد داخله شـعور قوى من الحزن والشـجى، ورفع رأسـه بعد قليل وقال: «ولكنى لن أسـتقر حتى أراها، إننى أحس كأنها تدعونى، ولا يشـغل قلبى اليوم إلا أمل واحد، أن أرى أمى التى لم تقع عينى عليها منذ عقلت».

وساد الصمت بعد ذلك حينًا، ثم قطعه امرؤ القيس قائلا كأنه فى حلم: «قيصر! هيهات يا صديقى!».

فقال عمر متحمسًا: «بل لا بد أن أصل إليه، سيوصلنى الحارث الغسانى إليه».

فعاد الصمت مرة أخرى، وأطرق امرؤ القيس يفكر وقد جاشت نفسه بآمال جديدة كما ينفذ الشعاع البعيد فى الكهف العميق، قيصر! كيف لم يخطر له من قبل أن يذهب إليه. أليس المنذر هو عدوه الذى يدل بجاه كسرى؟ ألم يخذله العرب ويطردوه وينفضوا عنه خوفًا من سطوة كسرى؟ فكيف لم يتجه من قبل إلى قيصر عدو كسرى القوى ليجد عنده من النصر ما عجز عنه فى قبائل العرب؟ ومرت فى ذهنه صور يتلو بعضها بعضًا: السموءل، الحارث الغسانى، قيصر، تتعاقب عليه، وتبدو متكررة، حتى امتلأ بها عقله وقلبه.

ولما ذهب القوم إلى مضاجعهم فى تلك الليلة، لم يذق امرؤ القيس للنوم طعمًا، بل جعل يردد الآمال الجديدة التى طلعت عليه، وعزم على أن يذهب مع صاحبه حيث يذهب، لعله يجد من الأقدار إقبالا، بعد أن طال انصرافها عنه وتجهمها عليه.

بكر عمرو بن قمية الصباح التالى خارجًا من خيمته إلى الفضاء، بعد أن قضى أكثر ليلته ساهدًا، والتفت حوله يظن أن القوم لا يزالون جميعًا فى نومهم؛ ولكنه عجب عندما رأى امرأ القيس جالسًا وحده أمام خيمته مطرقًا يفكر وينكت الأرض بسيفه وهو فى غمده،

فأسرع نحوه باسمًا، ولما أحس امرؤ القيس به التفت إليه مسرعًا، وقام مرحبًا وهو يتنفس كأنه كان فى انتظاره فقال له عمرو مادًّا إليه يده مسلمًا: «لعلى أراك يا أخى يومًا فى حال خير مما أنت فيه؛ ولعلى أعود إليك يومًا أقدر على معونتك منى اليوم».

فنظر إليه امرؤ القيس حينًا وما برح ممسكًا بيده، ثم مال به إلى ناحية وقال له: «أواثق أنت يا عمرو؟ أواثق أنت مما قلت لى بالأمس؟».

فأمسك عمرو بذراعه، ونظر إليه جادًّا، ثم قال: «إن أبى لا يكذب على وهو على حافة قبره».

ثم أدخل يده فى جيبه، فأخرج منه علبة صغيرة، قد لفها فى منديل من الحرير الأخضر، وفتحها وأخرج منها عقدًا من اللؤلؤ تتوسطه قطعة من الحجر الأحمر الشفاف، ثم رفع الحجر إلى الضوء وقال لامرئ القيس: «إنك لا تقرأ كتابتهم».

ثم التفت إليه وقال له مشيرًا إلى كتابة على ذلك الحجر: «انظر إلى هذا النقش، إنه اسمها، هو اسمها بالحرف الرومى: تيودورا، تيودورا».

وعلت وجهه عند ذلك ابتسامة انتصار رقيقة، واستأنف قائلا: «لقد أعطت أبى هذا العقد آخر مرة رآها فيها فى مدينة قيصر وكانت عند ذلك فى عهدها بمعرفة الأمير الذى صار فيما بعد قيصر الروم. كان ذلك الأمير ينتظر موت عمه، ليصل بعد موته إلى المُلك، وقد توسلت أمى إلى أبى أن يدعها وألا يتعرض لها خوف

أن يفسد ما بينها وبين الأمير، وأعطته ذلك العقد هدية يذكرها بها، وكان أبى يحبها، هكذا قال لى عند موته. فلم يشأ أن يفسد عليها حياتها وأملها، وعاد وحده إلى أرض فزارة كئيبًا يائسًا، واحتفظ بذلك العقد من ذكراها ولقد أصبح الأمير ملك الروم وصارت أمى زوجًا له».

ثم رد العقد إلى العلبة متأثرًا وأقفلها برقة. ثم لف عليه المنديل وأعادها فجعلها عند صدره وأردف قائلا: «إنها لن تكذبنى إذا رأت هذا العقد، وسترانى فوق ذلك ابنها بغير شك، فقد قال لى أبى إننى أشبهها».

ثم صمت وهو ينظر إلى الأفق فاتحًا عينيه كأنه يتطلع إلى الأمل البعيد الذى يلوح له عنده.

فوضع امرؤ القيس يده على كتفه برفق، ونظر إليه متوسلًا وقال بصوت ضعيف: «أما ترضى أن أصاحبك يا عمرو؟».

فالتفت إليه عمرو مسرعًا وقد فوجىء بهذا القول، وفتح عينيه مندهشًا، ثم قال بعد لحظة من الصمت وقد بدت على وجهه ابتسامة ضعيفة: «تصاحبنى؟».

فهز امرؤ القيس رأسه مُنعِّمًا ولم يتكلم، ففتح عمرو ذراعيه وضمه إلى صدره قائلا: «مرحبًا بك يا أخى، هلم فنلكن معًا نهيم مع الأقدار، كما كنا نهيم معًا فى القفار، ولعلنا نصيب ما نرجو من الخير معًا».